

تراث الفكر العربيّ، ولئن ظلّت الأصوليّة العربيّة قطاعيّة تتوزّعها أفنان المعارف فإنّ مقدّمة ابن خلدون قد جاءت ماسكة بأزمة الفروع لتصوغ أصوليّة كليّة هي مدار الاستقراء الجامع والتّنظير المانع.

ولا ريب أنّ الرّوح الاختباريّ قد كان مركز النّظر ومعول الفحص عند ابن خلدون، بل كان عدسة أوقفته على حقائق كثير من الأمور ممّا يخفى عن العين المجرّدة فلا يتجلّى إلّا لذوي المجاهر المعرفيّة، وقد نجت ابن خلدون لنفسه هذا المجهر المكبّر فشحنه بعدادات اختباريّة متكاثفة كانت له منطلقات في البحث التجريبيّ، وسندات في الكشف التجريديّ، ومنارات في التّحقيق الأصوليّ، فتظافرت لديه الأبعاد وتقلّصت أحجامها في مركز الدائرة الإدراكيّة، فغدا المنطق وال عمران والحساب والمعاش حلقات من لولب واحد يهتزّ محصّلا لصاحبه المعرفة الكليّة ثمّ كان استقراء البعد اللسانيّ سياجا يحاصر المعرفة ويحميها في نفس الوقت، وكان طبيعياً أن تأتي نظريّة ابن خلدون في اللغة مجمع الرّؤى الاختباريّة التي تتحدّى الفكر المعاصر بصرامة مقولاتها وعنف موضوعيّتها.

وليس من الشذوذ أن يلقي ابن خلدون إلى مسامعنا اليوم صيغا من القول تستفزنا إذ نتحدّثنا، فهو أبدا راغب عن الخصام اللفظيّ، ولكن الذي يتحدّثنا منه كما تحدّاه هو ذاته إنّما هو هذا الفكر «الخلطونيّ» الجامع؛ ههنا الذي استبدّ بصاحبه حتى أذاب المسافة بين أوائل الأمور وأواخرها فكاد يحرم على الإنسان عبلا لم يتّضح منه مطافه منذ بدته، وكاد يطعن في